جَدٌّ بلا أحفاد

ألقيت هذه القصيدة يوم عقد قران ابنتي الأولى إصلاح في صالة الفيحاء بدمشق ظهر ١٩٨٩/٨/٢٩، وقد حضر العقد عدد كبير من العلماء والأدباء والأصدقاء... وكان قد طلب إليّ الأخ الدكتور الأديب عيسى زيدان المرزوقي وهو شقيق صهري عدنان وقبل الموعد بمدة وجيزة أن تكون لي قصيدة... فكان ما أراد... وكانت هذه القصيدة... أثبتها هنا وفاء للذكرى... فقد جاءت القصيدة بحكم الارتجال وليس فيها أدنى تكلف... إنما هي مشاعر منظومة...

وقد تلطفت مجلة «الثقافة» الدمشقية الشهرية الغراء بنشرها كاملة في عددها شباط ١٩٩٢ تحت هذه المقدمة:

«زوَّجَ إمامُ المدينة المنورة، ومحدثها سعيدُ بن المسيّب ابنتَه إلى تلميذه أبي وداعة على مهر مقداره درهمان... وتناقلت كتُبُ السِّير هذه القصة.. وقد زوَّج صديقُ المجلة مصطفى عكرمة «ابو رفاعة» ابنتَه الأولى على مهرٍ مجموعه ليرة سورية واحدة، وقد ألقى في حفل زفافها هذه القصيدة التي تنفرد بنشرها مجلة الثقافة.

ولا يفوتنا أن ننوّه أن صديق المجلة يعتبر نفسَه جداً على اعتبار ما سيكون، إذ أن ابنته هذه هي أولى من يزوج من أولاده... وإذا كانت قصة ابن المسيب قد حفلت بذلك الاهتمام وهو من كان يجد حوله أعواناً في ذلك العهد القريب من عهد النبوّة.. فإن موقفاً يصدر عن صديقنا في هذا العصر المادي لهو مما يوجب منا لفت النظر إليه.

الثقافة

عُـذراً إذا مـا هزّنـي التَّحنـانُ ... فأنـا بمـن ألقـى هنـا نشـوانُ

جمـع الإلـه أحبَّتـي في فرحتـي ... وأظـلَّ جمـعَ أحبَّتـي الرحمـنُ

فأنـا بهـم... وبمـا حبـاني جمعُهـمْ ... مـن نعميـاتٍ حـالمٌ... يقظـانُ

أوليـس حسـبي أنَّ تقـوى ربِّنـا ... هـي لاجتمـاعِ أحبَّتـي عنـوانُ!

وبـأن مـن ألقـى أحِـسُّ قلوبهـم ... قلبـي.. وأنّـا كلُّنـا إخـوانُ

وإذا القلـوب أظلّهـا روحُ التُّقـى ... فـاض الرضـا... وتـنزّل الغفـرانُ

❖❖❖

سبحان من في الدِّين وحدّ أنفساً ... فـإذا بـه رَحِـمٌ لهـا... ولسـانُ

كـلُّ الفـوارق ذائبـاتٌ في التقـى ... فهـو الأسـاس الحـقُّ، والمـيزانُ

الكـلُّ يبـذلُ مـا اسـتطاعَ لغـيرهِ ... متكتّمـاً... ويسـوؤه الإعـلانُ

يسعى الجميع على الجميع فكلُّهم ... في كـلِّ مـا يعنيهمـو أعـوانُ

كـلُّ الكيانـات انتهـتْ، وغـدا لهـم ... في روحِ مـا يُرضـي الإلـهَ كيـانُ

فـالبذلُ، والإيثـارُ غايـة مـن هُـدوا ... والـبرُّ، والإخـلاص، والإحسـانُ

إن المكـارمَ، والمحـامدَ كلَّهـا ... لتكـون حيـثُ تمكَّـنَ الإيمـانُ

❖❖❖

عـذراً إذا مـا هزَّنـي التحنـانُ ... ونـأتْ قليـلاً عـن فمـي الأشـجانُ

قد عشتُ ما قد عشت نضوَ شقاوةٍ ... كشـقاءِ بحْـرٍ مالَـه شـطآنُ

أحيا ويعصرني الأسى ... فكأنمـا ... بقيـادِ نفسـي تمسِـك الأحـزانُ

مـا نـاب خطـبٌ مؤمنـاً إلاّ ولـي ... منـه شـقاء النفـس والحرمـانُ

فهمـوم كـلِّ المؤمنـين أعيشـها ... فهمـو لـي الأهلـون ، والخِـلاَّنُ

مـن عهـد آدم كـلُّ مـن قـد آمنـوا ... هـم في فـؤادي كلُّهـم سـكّانُ

مـا أبعدتهـمْ عـن دمـي أوطـانُهمْ ... كـلاّ ... ولـم ترحـلْ بهـم أزمـانُ

فلكم بكى قلبي مصائب من مضوا ... فهوانُهم لي شِقوةٌ ... وهَوانُ !
ولكم سَعِدْتُ لنصر من قد آمنوا ... وفرِحت حين تقهقر الطغيانُ!
واليومُ حالُ المسلمين كما ترى ... لا النثرُ يكفيها، ولا الأوزانُ*
أشكو لك اللّهم حالةَ أمتي ... فلأنتَ من نرجوه يا منّانُ
فأنا امرؤٌ يحيا الأبوّةَ قلبُه ... ومع الأبوّةِ يولدُ الإنسانُ

❖❖❖

عذراً إذا ما هزّني التحنانُ ... والشعرُ سال كأنه الغدرانُ
فرؤى الشباب، وما رأيت، وما أرى ... جمعتْ، فكان الرَّوْحُ، والريحانُ
فالنفس في عهد الصِّبا، تحيا الصِّبا ... إنَّ الصِّبا عَجِلُ الخطا ...حيرانُ
تلهو بمن عاش الصِّبا أحلامُهُ ... فالسعي فوضى ... والجهودُ رهانُ
فإذا بصالحةٍ أتمَّ قرانَه ... وجد المنى في أن يكون قِرانُ
فالعمرُ يبدأ بالزواج نعيمهُ ... وبه يتمّ الدِّين، والإيمانُ
فَلَخَيْرُ ما في عيشنا، وأحبُّهُ ... زوْجٌ تعين على التقى، وتعانُ
هي في مجال الصبر يُحمد صبرُها ... ولها على عسْرِ الحياةِ ليانُ
ما أفسدتْها نعمةٌ يوماً ... ولا ... عصَفت بها الاشكالُ والألوانُ
هي للأمومةِ قلبُها ... وحياتُها ... ولها بتقوى ربِّها اطمئنانُ

❖ إشارة إلى ما كانت تعاني منه أمتنا بعامة ... وما كان يعصف بلبنان الشقيق بخاصة فقد كانت أحداثها يومذاك مما تنفطر به وعليه الأكباد .

فالمؤمناتُ، وما سوى من آمنت ... تبني الحياةَ فيشمخ البنيانُ

يا ربَّة الإيمانِ أنتِ رجاؤنا ... في الجدْبِ كيما يثمر البستانُ

مهما تعهَّدهُ سِواكِ فقاحلٌ ... وتظلُّ عاريةً به الأغصانُ

إن البطولةَ، والرجولَةَ لم تكنْ ... لولا نماها من لَدنْكِ لِبانُ

تتهدّمُ الدنيا، ويبقى ما بَنتْ ... أمٌ تملَّك قلبَها الإيمانُ

فهي النعيم وما سواها نعمةٌ ... في عالم رحماؤه ذِئبانُ

❖❖❖

عذراً إذا ماهزّني التحنانُ ... وترقرقتْ في أشطري الغدرانُ

نفحاتُ خيرُ الرُّسْلِ أحيتْ مهجتي ... وصحا بهنَّ الفكرُ، والوجدانُ

فبقولةٍ منه صلاحُ أمورِنا ... فهي الغياثُ، وكلُّنا ظمآنُ

سبحان من جعل الزواجَ بشرعهِ ... ركناً عليه ينهضُ البنيانُ

خيرُ الرجال خيارُهم لنسائهم ... فالزَّوج نصفُ الدِّين يا شبانُ

إن الأماني والسعادة كلَّها ... في أن تكون أباً له ولدانُ

أوليس يكفي أن تنادي يا أبي ! ... فبقولها قدْرٌ... وفيها الشانُ

في لفظ «بابا» ألف ألف سعادةٍ ... يعيا بأدنى وصفها التبيانُ

فتزوجوا يا أيها الشبّانُ ... وتعجّلوا... إن الشبابَ أوانُ

وتخيّروا ذات التقى كي تسعدوا ... فالعمرُ نارٌ دونها، ودخانُ

مهما لقيتم من متاعبَ أقدِموا ... فبغيرها لن تسعدوا، وتصانوا

فتزوّجوا.. وتكاثروا يعنو لكم ... كِبْرُ العدوِّ، وتعمر البلدانُ

ما للسعادةِ غيرُ تقوى ربِّنا ... شرطٌ... ولا غيرُ العفافِ ضمانُ

فلكلِّ طيبةٍ قرينٌ طيبٌ ... أوَ مَا بهذا بشرَّ القرآنُ!!

فتعجلّوا يا أيها الشبانُ ... أو جدّدوا يا أيها «الشيبانُ»

فتعدّدُ الزوجاتِ يبقى سُنَّةً ... تجلو فضائل سَنِّها الأزمانُ

وإطاعةُ الرحمن فيما سنّه ... للعقل فيها يظهر الرُّجحانُ

شرُّ الرجالِ العازبون، وشرُّهم ... من لم يعفَّ فريحه خُسرانُ

ما أهون الإنسان يصرفه الهوى ... وأعزَّ نفساً ربُّها الدَّيانُ!

سبحان من خص الزواج برحمةٍ ... ومودّةٍ... ولتكثر «السُّبحانُ»!

❖❖❖

عذراً إذا ما هزني التحنانُ ... والشعرُ رقَّ كأنه الألحانُ

اليوم أمشي للكهولةِ مسرعاً ... وأنا بها متلذِّذٌ، هيمانُ

فهي الوقارُ وإن تكن خطواتنا ... ثقُلتْ بها... لكنها اطمئنانُ

لا تعجبوا من فرحتي بكهولتي ... فمع الكهولةِ كم يكون أمانُ!!

قد كنتُ، ثم غدوتُ، ثم أنا غداً ... جدٌّ تجمّعَ حوله الصِّبْيانُ

كلٌّ له ما يشتهي من جدِّه ... أوَلستُ جَدّاً ما له أقرانُ!!

فأنا البطولة عندهم، وأنا لهم ... كنزٌ بكلِّ عجيبةٍ ملآنُ

لا يعتريني الضعفُ يوماً عندهم ... كلاّ وليس لثروتي نقصانُ

أنـا للجميـع منفـذٌ رغبـاتهم ... فيمـا يـرون... فكلُّهـم سـلطانُ
هـذا «معاذٌ» جـاء يطلـب نجدتـي ... مـن بطش مـن نادتْـه يـا (شيطانُ)
ينـدسُّ في حضنـي، ويكمـن آمنـاً ... إلاّ لهـذا بئسـتِ الأحضـانُ
ويفرّ نحـوي «مصطفى» ممّا جنى ... فأنـا لـه ممّـا جنـاه ضمـانُ
وتـراه يحـرن إن أمـرتُ وإنـه ... لَيلـذُّ منـه تمـرُّدٌ، وحِـرانُ
و«محمَّـدٌ» يرجـو لـديَّ حكايـةً ... عمّـا أجـاد بفعلـه الشـجعانُ
وعـن الفتوحـاتِ العظـامِ لأمتـي ... والنصـرُ تُعلـي بَنـدَه الفرسـانُ
وتجيؤنـي «هنـدٌ» تقبـل لحيتـي ... فتشـبُّ مـن تقبيلهـا الأشـجانُ
وتـروح ترجـو أن تنـال شـفاعتي ... عنـد ابنتـي ليجيئهـا «الفسـتانُ»
ونبيـلُ يقفـز غاضبـاً أو أشـتري ... حـالاً لـه مـا تحتـوي الدُّكـانُ
ويجرُّنـي «سـعدٌ» إلـى حاجاتـه ... مـا همّـه أن جـدَّهُ وَسـنانُ
وأنـا علـى «عمـرٍ» أذوبُ توَجُّعـاً ... إن آلمتْـهُ بشـقّها الأسـنانُ
وأكـاد مـن آهاتـه أقضـي آسـىً ... وأودّ لـو أنـي لـه قربـانُ
وعلـى صـلاحِ الديـنِ تذهـب حسـرةً ... نفسـي إذا مـا سـال منـه بَنـانُ
وبكـلِّ آهٍ منهمـو لـي حرقـةٌ ... فهمـو بقلبـي كلُّهـم صِنـوانُ
ولأجلهـم كـلُّ الصغـار أحبتـي ... ولـيَ الصغـارُ جميعهـم ولـدانُ
أحببتُ حتـى شِـقوتي مـن أجلهـم ... إن يسـعدوا فأنـا بهـا نشـوانُ
هـم في ضميري، في فؤادي، في دمـي ... في مقلتـي إن أقبلـوا، أو بـانوا
هـم في سكوتي، في كلامـي، في يـدي ... في مسمعي همْ... أينمـا هـم كـانوا

فأنا بهم أحيا المنى... وهمو علي ... هاماتِ كلُّ مطامحي تيجانُ
جدٌّ أنا جَدٌّ... وترجعُ قوّتي ... في قولها... ويهزّني التحنانُ
فلكلُّ من يرجو، وما يُرجى ترى ... «جدّو» هوالمضمون، والضمّانُ
فإذا حلمتُ بغفوةٍ لدقيقةٍ ... ألقى الصُّراخَ كأنه البركانُ
فإذا غضبتُ تبسّموا فنسيتُ ما ... فعلوا... فكان الصفحُ والغفرانُ
سبحان من في قول يا «بابا» ويا ... «ماما» ويا «جدّو» له برهانُ
فسماعها شلاّلُ موسيقى، ولا ... أحلى... وتخجل عندُه الألحانُ

❖❖❖

هذي الثمار اليانعاتُ لغرسةٍ ... تدعى الزَّواجَ الحقَّ يا شبّانُ
أشهى المنى عِشٌّ يقوم على التقى ... فالعشُّ عند الصالحاتِ جنانُ
من ذات ربِّك رحمةٌ، ومودةٌ ... فيه... وفيه الأنسُ والسلوانُ
فإذا خَلَتْ منها الحياةُ فعمرُها ... عمرُ الهشيمِ تلفّه النيرانُ
يا أيها الآباءُ نرجو يُسركمْ ... حتى يقومَ لشرعنا البنيانُ
يا فوزَ من قد يسّروا، وتساعدوا ... فلهمْ يُساقُ الشكرُ، والعرفانُ
ولِمنْ أبَوْا يسراً، وغالَوْا منذرٌ ... فهمو لشيطان الغوى شيطانُ
هم عطّلوا الشرعَ الحنيفَ، وأبدعوا ... فتَناً بها تتهدّمُ الأكوانُ

❖❖❖

إن ابنتي «إصلاح» صورةُ مهجتي ... وأخو الهدايةِ كفؤُها «عدنانُ»
باركْ إلهي فيهما... باركْهما ... فلأنتَ من نرجوه يا رحمنُ*

* أبقيت القصيدة على حالها لأن ما فيها - على بساطته - هو أهم ما نؤمن به ونعاني من عدم تطبيقه.